

العِبَادَةُ

عناصر الموضوع

٤٢	مفهوم العبادة
٤٤	العبادة في الاستعمال القرآني
٤٥	الألفاظ ذات الصلة
٤٦	العبادة والاستعانة
٤٨	أنواع العبادة
٥٠	مكانة العبادة في القرآن
٥٤	أركان العبادة
٥٧	شروط العبادة
٥٩	دوافع العبادة
٦٤	صور العبادة
٦٧	عبادة غير الله تعالى
٧٢	مقاصد العبادة وآثارها

واجتناب، أو هي فعل المكلف على خلاف هوى نفسه تعظيمًا لربه^(١)، فصارت في الشرع اسمًا لكل طاعة لله، أدت له على وجه التذلل والنهاية في التعظيم^(٢).

وقال الرازي: «العبادة تعظيم أمر الله والشفقة على الخلق، وهذا المعنى هو الذي اتفقت عليه الشرائع وإن اختلفوا في الوضع والهيئة والقلة والكثرة»^(٣).

فهي بهذا التفسير تشمل الامتثال لأحكام الشريعة كلها^(٤)، فهي في مفهومها العام تعني: «التذلل لله محبة وتعظيمًا، بفعل أو أمره، واجتناب نواهيه، على الوجه الذي جاءت به شرائعه»^(٥).

وتعريف شيخ الاسلام ابن تيمية أدق وأشمل، فالدين كله داخل في العبادة، ومن خلال تعريف العلماء للعبادة في الاصطلاح الشرعي تبين أن لفظ العبادة يدور حول معنى الذل التام والخشوع الكامل لله تعالى، والالتزام بما شرعه، والانتهاز عما نهى عنه تعالى، والتمسك بكل ما يرضى الله تعالى، قولًا وعملاً وتركًا، وكل هذه التعريفات للعبادة معناها واحد ولا تختلف عن المعنى اللغوي.

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١/ ١٨٠.

(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٣٢/ ٢٤٣ بتصرف.

(٣) المصدر السابق ٢٨/ ١٩٣ بتصرف.

(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١/ ١٨٠.

(٥) المفيد في مهمات التوحيد، عبدالقادر صوفي ص ٩٢.

العبادة في الاستعمال القرآني

وردت مادة (عبد) في القرآن الكريم (٢٧٥) مرة^(١).
والصيغ التي وردت عليها هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٥	﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٣٥]
الفعل المضارع	٨١	﴿قَالُوا أَجِئْنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ، وَنَدَّرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤَنَا﴾ [الأعراف: ٧٠]
فعل الأمر	٣٧	﴿قَالُوا أَجِئْنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ، وَنَدَّرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤَنَا﴾ [الأعراف: ٧٠]
اسم فاعل	١٢	﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَاعْبُدْتُمْ﴾ [الكافرون: ٤]
اسم (مفرد، مثنى، جمع)	١٣١	﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِكُلِّ عَابِدٍ﴾ [سبأ: ٩]
مصدر	٩	﴿وَلَا يَشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدٌ﴾ [الكهف: ١١٠]

وجاءت (العبادة) في الاستعمال القرآني على وجهين^(٢):

أحدهما: التوحيد: ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء: ٣٦] أي: وحدوه.

الثاني: الطاعة: ومنه قوله تعالى: ﴿أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾ [يس: ٦٠] أي: أن لا تعبدوا الشيطان فتطيعوه في معصية الله^(٣).

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي ص ٤٤١ - ٤٤٥.

(٢) انظر: نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي ١/ ٤٣١ - ٤٣٢.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/ ٤٧٠.

الألفاظ ذات الصلة

١ الطاعة:

الطاعة لغةً:

من طوع بمعنى الانقياد^(١).

الطاعة اصطلاحاً:

امتثال أمر الله طوعاً^(٢).

الصلة بين الطاعة والعبادة:

قال الكفوي: «والطاعة أعم من العبادة؛ لأن العبادة غلب استعمالها في تعظيم الله غاية التعظيم، والطاعة تستعمل لموافقة أمر الله وأمر غيره، وتجاوز الطاعة لغير الله في غير المعصية، ولا تجوز العبادة لغير الله تعالى»^(٣).

٢ النسك:

النسك لغةً:

قال الراغب: «النسك: العبادة، واختص بأعمال الحج»^(٤).

وقال الزبيدي: «والنسك: العبادة والطاعة وكل ما تقرب به إلى الله تعالى، ومنه قوله

تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلرَّبِّ الْعَلِيمِ﴾ [الأنعام: ١٦٢]^(٥).

النسك اصطلاحاً:

لا يخرج عن معناه اللغوي.

الصلة بين النسك والعبادة:

جاءت لفظة النسك في القرآن الكريم بمعنى العبادة مطلقاً، كما جاءت بمعنى الذبائح التي يتقرب بها إلى الله سبحانه، وشعائر الحج، والأماكن التي تؤدي بها شعائر الحج، و«الموضع» الذي تقدم به الذبائح تقرباً إلى الله تعالى.

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ٤٣١.

(٢) انظر: التعريفات، الجرجاني ١/ ١٤٠، اللباب في علوم القرآن، ابن عادل ١٠/ ٣٩٧، محاسن التأويل، القاسمي ٤/ ٥٢٣.

(٣) الكلبيات، الكفوي ص ٥٨٣.

(٤) المفردات، الراغب الاصفهاني ص ٨٠٢.

(٥) تاج العروس، الزبيدي ٢٧/ ٣٧٢.

العبادة والاستعانة

أولاً: حكمة اقتران العبادة بالاستعانة:

ذكر أهل العلم رحمهم الله تعالى الحكمة من اقتران العبادة بالاستعانة، وتقديم العبادة على الاستعانة، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ تَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥].

ومن هذه الحكم ما ذكره أبو حيان حيث قال: «وقرنت الاستعانة بالعبادة للجمع بين ما يتقرب به العبد إلى الله تعالى، وبين ما يطلبه من جهته»^(١)؛ وليدل على أن الإنسان لا يستطيع أن يقوم بعبادة الله إلا بإعانة الله وتوفيقه، ولا ينهض بها إلا بالتوكل عليه، فهو إقرار بالعجز عن حمل هذه الأمانة الثقيلة، إذالم يعنه الله على ذلك، فالاستعانة بالله علاج لغرور الإنسان وكبريائه، وهما داءان قتالان^(٢).

ثانياً: تقديم العبادة على الاستعانة:

ولتقديم العبادة على الاستعانة أسباب عديدة أشار إليها ابن القيم رحمه الله حيث قال: وتقديم العبادة على الاستعانة لما يلي:

١. العبادة غاية العباد التي خلقوا لها، والاستعانة وسيلة إليها، فكان ذلك من قبيل تقديم الغايات على الوسائل.

(١) البحر المحيط، أبو حيان ١/ ٤٤.

(٢) لمسات بيانية في نصوص من التنزيل، فاضل السامرائي ص ٤٥.

٢. قوله: ﴿إِيَّاكَ تَعْبُدُ﴾ متعلق بألوهيته سبحانه ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ متعلق بربوبيته.

٣. تقديم العبادة على الاستعانة يتناسب مع تقديم اسم «الله» على لفظ «الرب» المذكورين في أول السورة، حيث إن ﴿إِيَّاكَ تَعْبُدُ﴾ قسم الرب، فكان من الشطر الأول، الذي هو ثناء على الله تعالى، لكونه أولى به ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ قسم العبد فكان من الشطر الذي له وهو ﴿أَمِدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ إلى آخر السورة.

٤. العبادة المطلقة تتضمن الاستعانة من غير عكس، فكل عابد لله عبودية تامة مستعين، ولا ينعكس الأمر؛ لأن صاحب الأغراض والشهوات قد يستعين به على شهواته، فكانت العبادة أكمل وأتم؛ ولهذا كان قسم الرب.

٥. الاستعانة جزء من العبادة من غير عكس فقدم الكل على الجزء.

٦. العبادة لا تكون إلا من مخلص، والاستعانة تكون من مخلص، ومن غير مخلص.

٧. العبادة حق الله الذي أوجبه على العبد والاستعانة طلب العون على العبادة؛ فكان حق الله أولى بالتقديم.

٨. العبادة شكر لنعمة عليك، والله يحب

والثاني تبرؤ من الحول والقوة، والتفويض إلى الله عز وجل، وهذا المعنى في غير آية من القرآن، كما قال تعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣].

وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَّنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ [الملك: ٢٩].

وقال تعالى: ﴿رَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [المزمل: ٩].^(٣)

أن يشكر، والإعانة فعله بك وتوفيقه لك، فإن التزمت عبوديته، ودخلت تحت رقتها أعانك عليها، فكان التزامها والدخول تحت رقتها سببا لنيل الإعانة، وكلما كان العبد أتم عبودية كانت الإعانة له من الله أعظم.

٩. قوله: ﴿إِيَّاكَ تَبَدُّدٌ﴾ لله، ﴿وَرِيَّاكَ نَسْتَعِيثُ﴾ به، والذي له مقدم على ما به؛ لأن ما له متعلق بمحبته ورضاه والذي يكون به متعلق بمشيئته، وما تعلق بمحبته أكمل مما تعلق بمجرد مشيئته، فهذه الأسرار يتبين بها حكمة تقديم ﴿إِيَّاكَ تَبَدُّدٌ﴾ على ﴿وَرِيَّاكَ نَسْتَعِيثُ﴾^(١).

وتضمنت هذه الآية إثبات مذهب أهل السنة والجماعة في القدر، وأن جميع الأشياء بقضاء الله وقدره، وأن العبد فاعل حقيقة، ليس مجبوراً على أفعاله، فلولا أن مشيئة العبد مضطر فيها إلى إعانة ربه وتوفيقه لم يسأل الاستعانة^(٢).

فائدة:

قال بعض السلف: الفاتحة سر القرآن، وسرها هذه الكلمة ﴿إِيَّاكَ تَبَدُّدٌ وَرِيَّاكَ نَسْتَعِيثُ﴾ فالأول تبرؤ من الشرك،

(١) مدارج السالكين، ابن القيم ٩٧-٩٨ بتصرف واختصار.

(٢) تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن، السعدي ص ١٢.

(٣) محاسن التأويل، القاسمي ٢٣٠/١.

أنواع العبادة

للعبادة معانٍ بحسب ما يتعلق بها، فالعبادة من حيث تعلقها بعموم الخلق وخصوصهم تنقسم إلى نوعين:

أولاً: عبادة عامة:

وهي عبودية أهل السماوات والأرض، قال تعالى: ﴿إِنَّ كُلَّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِيَ الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [مریم: ٩٣]. قال ابن القيم: «فالعبودية العامة: عبودية أهل السماوات والأرض كلهم لله، برهم وفاجرهم، مؤمنهم وكافرهم، فهذه عبودية القهر والملك، ويدخل فيه مؤمنهم وكافرهم»^(١).

وتسمى كذلك بالعبادة الكونية.

قال ابن عثيمين: «فالعبادة الكونية: وهي الخضوع لأمر الله تعالى الكوني، وهذه شاملة لجميع الخلق لا يخرج عنها أحد، فهي شاملة للمؤمن والكافر، والبر والفاجر»^(٢).

فكل من في السماوات والأرض فهو خاضع لله سبحانه وتعالى كونا فلا يمكن أبداً أن يضاد الله أو يعارضه فيما أراد سبحانه وتعالى بالإرادة الكونية، والعابدون

بالعبودية الكونية لا يثابون عليها؛ لأنهم خاضعون لله تعالى شأواً وأم أبواً، فالإنسان يمرض، ويفقر، ويفقد محبوبه من غير أن يكون مريداً لذلك بل هو كاره لذلك لكن هذا خضوع لله عز وجل خضوعاً كونياً^(٣)، فالخلق كلهم عبيد ربوبيته.

وأما وصف عبيد ربوبيته بالعبودية فلا يأتي إلا على أحد خمسة أوجه:

فالأول: إما منكرًا، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ كُلَّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِيَ الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [مریم: ٩٣].

والثاني: معرفًا باللام، كقوله تعالى: ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ [غافر: ٣١].

وكقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَّمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾ [غافر: ٤٨].

الثالث: مقيدًا بالإشارة أو نحوها، كقوله تعالى: ﴿ءَأَنْتُمْ أَضَلُّمٌ أَضَلَّكُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ﴾ [الفرقان: ١٧].

الرابع: أن يذكروا في عموم عباده، فيندرجوا مع أهل طاعته في الذكر، كقوله تعالى: ﴿أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [الزمر: ٤٦].

الخامس: أن يذكروا موصوفين بفعالهم، كقوله تعالى: ﴿قُلْ يَتَّبِعُوا الَّذِينَ آتَرَفُوا عَلَيَّ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٣].

(١) مدارج السالكين، ابن القيم ١/ ١٢٥ بتصرف واختصار.

(٢) مجموع فتاوى ورسائل، ابن عثيمين ٦/ ٣٢.

(٣) المصدر السابق ١/ ٨٩.

عَلَيْهِمْ سُلْطٰنٌ ﴿ [الحجر: ٤٢].

وأهل طاعته وولايته هم عبيد إلهيته، ولا يجيء في القرآن إضافة العباد إليه مطلقاً إلا لهؤلاء^(٢).

وتسمى كذلك بالعبادة الشرعية.

قال ابن عثيمين: «وهي الخضوع لأمر الله تعالى الشرعي، وهذه خاصة بمن أطاع الله تعالى، واتبع ما جاءت به الرسل مثل قوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمٰنِ الَّذِينَ يَمْسُوْنَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣]^(٣).

فهي التذلل له سبحانه وتعالى شرعاً فهذه خاصة بالمؤمنين بالله سبحانه وتعالى القائمين بأمره، ثم إن منها ما هو خاص أخص كعبودية الرسل عليهم الصلاة والسلام، مثل قوله تعالى: ﴿تَبٰرَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ﴾ [الفرقان: ١].

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة: ٢٣].

وقوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ عِبْدَنَا الَّذِينَ إِنَّا نَسَخَ وَتَعَوَّبَ﴾ [ص: ٤٥].

وغير ذلك من وصف الرسل عليهم الصلاة والسلام بالعبودية^(٤).

وقد يقال: إنما سماهم عباده إذ لم يقنطوا من رحمته، وأنابوا إليه، واتبعوا أحسن ما أنزل إليهم من ربهم، فيكونوا من عبيد الإلهية والطاعة^(١).

ثانياً: عبادة خاصة:

وهي عبودية الطاعة والمحبة، وهي خاصة بالمؤمنين القائمين بأمره سبحانه وتعالى.

قال تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمٰنِ الَّذِينَ يَمْسُوْنَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَدِثُ لَوْنٌ قَالُوا سَلٰمًا﴾ [١٣] [الفرقان: ٦٣].

قال ابن القيم: «فالعبودية الخاصة: هي عبودية الطاعة والمحبة، واتباع الأوامر. قال تعالى: ﴿يَعْبُدُونِي لَا حَوْفٌ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ [٦٨] [الزخرف: ٦٨].

وقال تعالى: ﴿بَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ [الزمر: ١٧-١٨].

وقال تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمٰنِ الَّذِينَ يَمْسُوْنَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَدِثُ لَوْنٌ قَالُوا سَلٰمًا﴾ [١٣] [الفرقان: ٦٣].

وقال تعالى عن إبليس: ﴿وَلَا تُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [٣١] ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلِصِينَ﴾ [٤٠] [الحجر: ٣٩-٤٠].

فقال تعالى عنهم: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ

(٢) مدارج السالكين، ابن القيم ١/١٢٦ بتصرف يسير.

(٣) مجموع فتاوى ورسائل، ابن عثيمين ٦/٣٣.

(٤) المصدر السابق ١/٨٩.

(١) مدارج السالكين، ابن القيم ١/١٢٦-١٢٧.

مكانة العبادة في القرآن

أوجد الله سبحانه وتعالى الخلق لغاية سامية، وهي عبادته جل شأنه، فأرسل الرسل وأنزل الكتب، للدعوة الناس إلى عبادته وحده لا شريك له، فالعبادة شرف عظيم، من انتسب إليها أصبح من عباده المتقين.

وقد تحدث القرآن الكريم عن بعض مظاهر مكانة العبادة، نوجزها في النقاط الآتية:

أولاً: العبادة غاية الخلق:

والعبادة هي الغاية التي خلق لها الجن والإنس والخلائق كلها، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

قال السعدي في هذه الآية: «هذه الغاية التي خلق الله الجن والإنس لها، وبعث جميع الرسل يدعون إليها، وهي عبادته، المتضمنة لمعرفته ومحبته، والإنابة إليه والإقبال عليه، والإعراض عما سواه، وذلك يتضمن معرفة الله تعالى، فإن تمام العبادة متوقف على المعرفة بالله، بل كلما ازداد العبد معرفة لربه كانت عبادته أكمل، فهذا الذي خلق الله المكلفين لأجله»^(١) وقال

ابن كثير: «ومعنى الآية: أنه تعالى خلق العباد ليعبدوه وحده لا شريك له، فمن

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٨١٣.

أطاعه جازاه أتم الجزاء، ومن عصاه عذبه أشد العذاب»^(٢).

وقال ابن عاشور: «وفي هذه الآية خير مستعمل في التعريض بالمشركين الذين انحرفوا عن الفطرة التي خلقوا عليها، فمخالفوا سنتها اتباعاً لتضليل المضلين، والجن: جنس من المخلوقات مستتر عن أعين الناس، وهو جنس شامل للشياطين، قال تعالى عن إبليس: ﴿كَانَ مِنَ الْجِنَّ﴾ [الكهف: ٥٠].

والإنس: اسم جمع واحده إنسي بياء النسبة إلى اسم جمعه»^(٣).

وما ذكر الله الجن هنا إلا لتنبه المشركين بأن الجن غير خارجين عن العبودية لله تعالى، وقد حكى الله عن الجن في سورة الجن قول قائلهم: ﴿وَأَنَّهُ كَانَتْ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا﴾ [الجن: ٤].

وتقديم الجن في الذكر في قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ للاهتمام بهذا الخبر الغريب عند المشركين الذين كانوا يعبدون الجن؛ ليعلموا أن الجن عباد لله تعالى، فهو نظير قوله: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦].^(٤)

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٤٢٥.

(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٧/ ٢٥ بتصرف.

(٤) المصدر السابق ٢٧/ ٢٨.

الرسول، كما قال نوح لقومه: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩].

وكذلك قال هود وصالح وشعيب وغيرهم لقومهم^(٥).

فغايتهم العظمى، ووظيفتهم الكبرى، وهدفهم الأسمى: دعوة الناس إلى عبادة الله وحده، وخلع عبادة ما سواه^(٦)، وكل رسول من الرسل افتتح دعوته بالدعاء إلى عبادة الله تعالى^(٧).

وقال السعدي: «يخبر تعالى أن حجته قامت على جميع الأمم، وأنه ما من أمة متقدمة أو متأخرة إلا وبعث الله فيها رسولا وكلهم متفقون على دعوة واحدة ودين واحد، وهو عبادة الله وحده لا شريك له» ﴿أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الصَّلٰتِ﴾^(٨).

والآية تضمنت التصريح بأن الله أمر جميع عباده بعبادته، واجتناب الشيطان، وكل ما يدعو إلى الضلال على السنة الرسول عليهم السلام.

ثالثاً: العبادة تشريف:

فالعبادة ذروة الشرف، ومقام عظيم، حيث جاءت تشريفاً لعباده المرسلين.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا

وقال الشوكاني: «وجه تقديم الجن على الإنس ما هنا تقدم وجودهم»^(١).

وفي اختصاص الجن والإنس من بين المخلوقات بالذكر إشارة إلى أنهما هما المخلوقان اللذان لهما إرادة عاملة، وهما بهذه الإرادة يعملان فيؤمنان أو يكفران، ويطيعان أو يعصيان، ومن هنا وقع عليهما التكليف، وحق عليهما الحساب والجزاء، بمقتضى ما يعملان من خير أو شر^(٢).

ثانياً: العبادة رسالة الرسل:

فكما أن الله خلق الخلق لعبادته كذلك أرسل الرسل أيضاً لعبادته سبحانه وتعالى.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الصَّلٰتِ﴾ [النحل: ٣٦].

قال الرازي في هذه الآية: «فبين تعالى أن سنته في عبيده إرسال الرسل إليهم، وأمرهم بعبادة الله ونهيهم عن عبادة الطاغوت»^(٣).

وأن شغل الأنبياء منحصر في أمرين: عبادة الله وهداية الخلق^(٤).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «العبادة لله هي الغاية المحبوبة له والمرضية له التي خلق الخلق لها وبها أرسل جميع

(١) فتح القدير، الشوكاني ٥/ ١١٠.

(٢) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ٥٣٨/١٤.

(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٠٤/٢٠.

(٤) المصدر السابق ١٩٢/٢٨.

(٥) العبودية، ابن تيمية ص ٤٤ بتصرف.

(٦) النبوات، ابن تيمية ٢٨/١ بتصرف.

(٧) العبودية، ابن تيمية ص ٧٧.

(٨) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٤٠.

الْمُرْسَلِينَ ﴿٣١﴾ [الصافات: ١٧١].

قال ابن عثيمين: «فوصفهم الله بالعبودية قبل الرسالة مع أن الرسالة شرف عظيم، لكن كونهم عباداً لله عز وجل أشرف وأعظم، وأشرف وصف له وأحق وصف به»^(١).

وقال ابن القيم رحمه الله: «والله تعالى جعل العبودية وصفاً لأكمل خلقه، وأقربهم إليه، فقال تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ﴾ [ص: ١٧].

وقال تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ﴾ [ص: ٤١].

وقال تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾ [ص: ٤٥].

وقال عن سليمان: ﴿يَعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٣٠].

وقال عن المسيح: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ [الزخرف: ٥٩].

فجعل غايته العبودية لا الإلهية، كما يقول أعداؤه النصارى^(٢).

وجاءت كذلك تشريفاً لنا نبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

قال ابن كثير رحمه الله: «والعبادة مقام عظيم يشرف به العبد لانتسابه إلى جناب الله تعالى، كما قال بعضهم:

(١) القول المفيد على كتاب التوحيد، ابن عثيمين ٣٧٠-٣٧١.

(٢) مدارج السالكين، ابن القيم ١٢٢/١ بتصرف واختصار.

لا تدعني إلا بيا عبداها

فإنه أشرف أسمائي
وقد سمي الله رسوله بعبده في أشرف
مقاماته، فقال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى
عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ [الكهف: ١].

﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [الجن: ١٩].
﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾
[الإسراء: ١].

فسماه عبداً عند إنزاله عليه، وقيامه في
الدعوة، وإسرائه به^(٣).

وقال ابن عاشور في قوله تعالى:
﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾: «و
(عبد) المضاف إلى ضمير الجلالة هنا هو
محمد صلى الله عليه وسلم كما هو مصطلح
القرآن والإضافة إضافة تشريف»^(٤).

وقال سيد قطب في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ
كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ
مِنْ مِثْلِهِ﴾ [البقرة: ٢٣]: «ويبدأ هذا التحدي
بلفتة لها قيمتها في هذا المجال يصف
الرسول صلى الله عليه وسلم بالعبودية لله:
﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾
ولهذا الوصف في هذا الموضع دلالات
متكاملة:

فهو أولاً: تشريف للنبي وتقريب بإضافة
عبوديته لله تعالى، دلالة على أن مقام

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١٣٦/١.

(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٢/١٥ باختصار.

وهذا تشریف عظیم» (۳).

وجاءت تشریفاً لملائكته عليهم السلام:

قال ابن عاشور في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا
الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِنْدَ الرَّحْمَنِ إِنَّنَا آسِهْدُوا
خَلْقَهُمْ سَتَكْنُبُ شَهْدَتَهُمْ وَمَسْئَلُونَ ﴿١١﴾﴾

[الزخرف: ١٩] «فالإضافة إلى اسم الرحمان
تفيد تشریفهم قال تعالى: ﴿بَلْ عِبَادٌ
شُكْرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦].

والعبودية عبودية خاصة وهي عبودية

القرب، كقوله تعالى: ﴿مَكْذِبُوا عِبْدَنَا﴾
[القمر: ٩]» (٤).

وقال الرازي في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ
عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ
وَلَهُ يَسْجُدُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٦]:

«أن هذا تشریف للملائكة بإضافتهم إلى
الله، من حيث إنه أسكنهم في المكان الذي
كرمه وشرفه وجعله منزل الأنوار ومصعد
الأرواح والطاعات والكرامات، وإنما قال
تعالى في صفة الملائكة: الذين عند ربك؛
لأنهم رسل الله إلى الخلق كما يقال: إن عند
الخليفة جيشاً عظيماً، وإن كانوا متفرقين في
البلد، فكذا هاهنا، والله أعلم» (٥).

العبودية لله هو أسمى مقام يدعى إليه بشر
ويدعى به كذلك.

وهو ثانياً: تقرير لمعنى العبودية، في مقام
دعوة الناس كافة إلى عبادة ربهم وحده،
واطراح الأنداد كلها من دونه، فهذا هو ذا
النبي في مقام الوحي - وهو أعلى مقام -
يدعى بالعبودية لله، ويشرف بهذه النسبة في
هذا المقام» (١).

وقد جاءت تشریفاً للمؤمنين المتقين:

قال ابن عثيمين: «فأشرف وصف
للإنسان أن يكون من عباد الله، قال تعالى:
﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ
هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣]» (٢).

وقال الرازي في قوله تعالى: ﴿يَعْبَادِ
لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾
[الزخرف: ٦٨] «وقد ذكرنا مراراً أن
عادة القرآن جارية بتخصيص لفظ العباد
بالمؤمنين المطيعين المتقين، فقلوه:
﴿يَعْبَادِ﴾ كلام الله تعالى، فكأن الحق
يخاطبهم بنفسه ويقول لهم: ﴿يَعْبَادِ لَا خَوْفٌ
عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ وفيه أنواع
كثيرة مما يوجب الفرح:

أولها: أن الحق سبحانه وتعالى يخاطبهم
بنفسه من غير واسطة.

وثانيها: أنه تعالى وصفهم بالعبودية،

(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٧/٦٤٢.

(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٥/١٨٣.

(٥) مفاتيح الغيب، الرازي ١٥/٤٤٦ بتصرف.

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ١/٤٨.

(٢) القول المفيد على كتاب التوحيد، ابن عثيمين

١/٣٧٠ - ٣٧١.

أركان العبادة

لكل بناء أركان يقوم عليه، وبغيرها يكون بناء ناقصاً ومشوهاً، ولا يقي صاحبه من برد ولا حر، وهكذا هو بناء عبادة الله سبحانه وتعالى، له ركنان يقوم عليهما، ويصبح مقبولاً عند الله سبحانه وتعالى، وهذان الركنان هما:

أولاً: غاية الحب:

وهو تقديم محبة الله ورسوله على غيرهما.

قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَبِئْتَارُكُمْ كَسَادَهَا وَمَسْكَنٌ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ ﴾ [التوبة: ٢٤].

قال البغوي: «لما نزلت الآية الأولى ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا ءَابَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنْ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَّخِذْهُم مِّنكُمْ فَأُولَئِكَ هُم الظَّالِمُونَ﴾ [٣٢] [التوبة: ٢٣].

قال الذين أسلموا ولم يهاجروا: إن نحن هاجرنا ضاعت أموالنا وذهبت تجارتنا وخربت دورنا وقطعنا أرحامنا، فنزل قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ

وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ ﴾ (١).

قال القرطبي: «وفي الآية دليل على وجوب حب الله ورسوله، ولا خلاف في ذلك بين الأمة، وأن ذلك مقدم على كل محبوب» (٢).

وقال ابن عاشور: «إذا حصل التعارض والتدافع بين ما أَرَادَهُ اللهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وبين ما تجر إليه تلك العلاقات، وجب على المؤمن دحضها وإرضاء ربه، وقد أفاد هذا المعنى التعبير «بأحب» لأن التفضيل في المحبة يقتضي إرضاء الأقوى من المحبوبين، ففي هذا التعبير تحذير من التهاون بواجبات الدين مع الكناية عن جعل ذلك التهاون مسبباً على تقديم محبة تلك العلاقات على محبة الله، ففيه إيقاظ إلى ما يؤول إليه ذلك من مهوأة في الدين وهذا من أبلغ التعبير» (٣).

والعبادة تجمع أصليين: غاية الحب بغاية الذل والخضوع، فمن أحببته ولم تكن خاضعاً له، لم تكن عابداً له، ومن خضعت له بلا محبة لم تكن عابداً له حتى تكون محباً خاضعاً» (٤).

ولا تنفع عبادة بواحد من هذين دون الآخر؛ ولذا قال من قال من السلف: من

(١) معالم التنزيل، البغوي ٣٢٨/٢.
 (٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩٥/٨.
 (٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٥٣/١٠.
 (٤) مدارج السالكين، ابن القيم ٩٦-٩٥/١ باختصار.

قال الحسن وابن جريج: نزلت في قوم من أهل الكتاب قالوا: نحن الذين نحب ربنا، وروي أن المسلمين قالوا: يا رسول الله، والله إنا لنحب ربنا فأنزل الله هذه الآية^(٤).

قال ابن القيم: «فجعل اتباع رسوله مشروطاً بمحبتهم لله، وشرطاً لمحبة الله لهم، ووجود المشروط ممتنع بدون وجود شرطه وتحققه بتحقيقه فعلم انتفاء المحبة عند انتفاء المتابعة، فانتفاء محبتهم لله لازم لانتفاء المتابعة لرسوله، وانتفاء المتابعة ملزوم لانتفاء محبة الله لهم، فيستحيل إذا ثبتت محبتهم لله، وثبتت محبة الله لهم بدون المتابعة لرسوله»^(٥).

ثانياً: غاية الذل والخضوع:

وهو الذل والخضوع لله سبحانه وتعالى.

قال جل شأنه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ وَرَبُّكَ فَتَسْتَعِيبُ

﴿الفاتحة: ٥﴾.

قال الطبري: «وتأويل قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ

لك اللهم نخشع ونذل ونستكين؛ إقراراً لك يا ربنا بالربوبية لا لغيرك»^(٦).

وقد ذكر الطبري العلة في اختياره لهذا

التأويل حيث قال: «لأن العبودية عند جميع

عبد الله بالحب وحده فهو زنديق، ومن عبده بالرجاء وحده فهو مرجئ، ومن عبده بالخوف وحده فهو حروري، ومن عبده بالحب والخوف والرجاء فهو مؤمن موحد^(١)، فجنس المحبة يكون لله ولرسوله كالطاعة فإن الطاعة لله ولرسوله^(٢).

وقد جعل النبي صلى الله عليه وسلم تقديم محبة الله ورسوله على محبة غيرهما من خصال الإيمان، ومن علامات وجود حلاوة الإيمان في القلوب: ففي «الصحيحين» عن أنس رضي الله عنه: عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه، كما يكره أن يلقى في النار)^(٣).

ومحبة العبد لله ورسوله وطاعته لهما واتباعه أمرهما.

قال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ

فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ

رَحِيمٌ ﴿٣١﴾ [آل عمران: ٣١].

(١) معارج القبول بشرح سلم الوصول، حافظ الحكمي ٤٣٧/٢.

(٢) العبودية، ابن تيمية ص ٤٩.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب حلاوة الإيمان، رقم ١٦، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان، رقم ٦٧.

(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٦٠/٤ بتصرف.

(٥) مدارج السالكين، ابن القيم ١١٩/١.

(٦) جامع البيان، الطبري ١٥٧/١.

ركنان أساسيان لا قوام للعبادة بدونهما وهما: غاية الحب مع غاية الذل والخضوع، ولا يستحقها إلا المنعم جل وعلا. فائدة:

مراتب العبادة ثلاث: الأولى: أن يعبد الله طمعاً في الثواب وخوفاً من العقاب وهي العبادة، وهي درجة نازلة ساقطة؛ لأنه جعل الحق وسيلة لنيل المطلوب.

الثانية: أن يعبد الله لأجل أن يتشرف بعبادته؛ والانتساب إليه بقبول تكاليفه؛ وهي أعلى من الأولى إلا أنها ليست كاملة؛ لأن المقصود بالذات غير الله.

الثالثة: أن يعبد الله لكونه إلهاً خالقاً مستحقاً للعبادة وكونه هو عبداً له، وهذه أعلى المقامات وهو المسمى بالعبودية (٥).

العرب أصلها الذلة (١). وقال الماوردي: «وقوله: ﴿تَبَدُّدٌ﴾ فيه ثلاثة تأويلات: أحدها: أن العبادة الخضوع، ولا يستحقها إلا الله تعالى؛ لأنها أعلى مراتب الخضوع، فلا يستحقها إلا المنعم بأعظم النعم، كالحياة والعقل والسمع والبصر. والثاني: أن العبادة الطاعة. والثالث: أنها التقرب بالطاعة. والأول أظهرها؛ لأن النصرى عبدت عيسى عليه السلام، ولم تطعه بالعبادة، والنبي صلى الله عليه وسلم مطاع، وليس بمعبود بالطاعة (٢).

والعبد كلما كان أذل لله وأعظم افتقاراً إليه وخضوعاً له كان أقرب إليه، وأعز له، وأعظم لقدره، فأسعد الخلق أعظمهم عبودية لله (٣).

وفي الآية إعلام بما صدق به الإسلام من تحرير الأنفس لله تعالى وتخليصها لعبادته وحده، فإن كل ذلك إنما يستحقه فاطر الأرض والسموات وحده، وذلك أن لفظ العبادة يتضمن كمال الذل بكمال الحب. فلا بد أن يكون العابد محباً للإله المعبود كمال الحب، ولا بد أن يكون ذليلاً له كمال الذل، وهما لا يصلحان إلا لله وحده (٤).

ونستخلص مما سبق أن العبادة تتضمن

(١) انظر: المصدر السابق ١/ ١٦١.

(٢) النكت والعيون، الماوردي ١/ ٥٧-٥٨.

(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية ١/ ٣٩.

(٤) محاسن التأويل، القاسمي ١/ ٢٢٨.

(٥) مفاتيح الغيب، الرازي ١/ ٢١٤ بتصرف.

ففي الحديث الصحيح عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها، أو إلى امرأة ينكحها، فهجرته إلى ما هاجر إليه)^(٣).

فمن لم يخلص لله في عبادته، لم يفعل ما أمر به، بل الذي أتى به شيء غير المأمور، فلا يقبل منه، فقد جاء في الحديث الصحيح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يقول الله: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري، تركته وشركه)^(٤) (٥).

وللعلماء تعاريف متعددة لهذه الكلمة، قال الكرخي: الإخلاص أن لا يطلع على عملك إلا الله سبحانه ولا تطلب منه ثواباً، وقال الشهاب: الإخلاص عدم الشرك وأنه ليس بمعنى الإخلاص المتعارف^(٦).

فالإخلاص أصل من أصول الدين، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى:

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، رقم ١.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرقائق، باب من أشرك في عمله غير الله، رقم ٢٩٨٥.

(٥) محاسن التأويل، القاسمي ٦/٢٢٨.

(٦) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق خان ٣٣٤/١٥.

شروط العبادة

كما أن لكل عبادة في الإسلام أركان تقوم عليها، فكذلك لها شروط لا تصح إلا بها.

فأما شروط العبادة فهي:

أولاً: إخلاص النية:

فالإخلاص لله تعالى شرط أساسي لقبول العبادة.

قال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ [البينة: ٥].

وقد اختلفت ألفاظ السلف في معنى قوله: ﴿مُخْلِصِينَ﴾ قال بعضهم: مقرين له بالعبادة، وقال آخرون: قاصدين بقلوبهم رضا الله في العبادة، وقال الزجاج: أي يعبدونه موحدين له لا يعبدون معه غيره، ويدل على هذا قوله: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا﴾ [التوبة: ٣١]^(١).

قال القرطبي: «وفي الآية دليل على وجوب النية في العبادات، فإن الإخلاص من عمل القلب وهو الذي يراد به وجه الله تعالى لا غيره»^(٢).

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٤٣/٣٢، ومعاني القرآن وإعرابه، للزجاج ٣٥٠/٥.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٤٤/٢٠. وانظر: فتح القدير، الشوكاني ٥٨٠/٥.

فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق خان ٣٣٤/١٥.

«وجماع الدين أصلان: ألا نعبد إلا الله ولا نعبده إلا بما شرع لا نعبد بالبدع، كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠]»^(١).
وقال ابن القيم رحمه الله تعالى: «فلا يكون العبد متحققا بـ ﴿إِيَّاكَ تَعْبُدُ﴾ [الفاتحة: ٥] إلا بأصلين عظيمين: أحدهما: متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم.

والثاني: الإخلاص للمعبود، فهذا تحقيق ﴿إِيَّاكَ تَعْبُدُ﴾ [الفاتحة: ٥]»^(٢).

فإن هذين الأصلين هما دين الإسلام الذي ارتضاه الله كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥].

ولفظ «أسلم» يتضمن شيئين: أحدهما: الإخلاص.

والثاني: الاتباع والإذلال^(٣).

ثانياً: التزام الشرع:

والتزام الشرع هو المتابعة والموافقة لما جاء به نبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

قال تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾

[الكهف: ١١٠].

قال ابن كثير: «﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا﴾ ما كان موافقاً لشرع الله ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ وهو الذي يراد به وجه الله وحده لا شريك له، وهذان ركنا العمل المتقبل، لا بد أن يكون خالصاً لله، صواباً على شريعة رسول الله صلى الله عليه وسلم»^(٤).

ولهذا كان أئمة السلف رحمهم الله يجمعون هذين الأصلين كقول الفضيل بن عياض في قوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢].

قال: أخلصه وأصوبه.

ف قيل له: يا أبا علي، ما أخلصه وأصوبه؟ فقال: إن العمل إذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل، وإذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل حتى يكون خالصاً صواباً، والخالص أن يكون لله، والصواب أن يكون على السنة^(٥).

وهو المتفق عليه بين المسلمين، فإنه لا بد له في العمل أن يكون مشروعاً مأموراً به، وهو العمل الصالح، ولا بد أن يقصد به وجه الله، كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠].

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه

(١) العبودية، ابن تيمية ص ١٤٨.

(٢) مدارج السالكين، ابن القيم ١/ ١٠٤.

(٣) جامع المسائل، ابن تيمية ٦/ ٢٨.

(٤) مفاتيح الغيب، الرازي ٣٢/ ٢٤٣.

(٥) الاستقامة، ابن تيمية ٢/ ٣٠٨ - ٣٠٩.

دوافع العبادة

هناك دوافع وأسباب تدفع الإنسان لعبادة الله سبحانه وتعالى، وتجعله دائم الصلة بربه تعالى، ويؤكدنا أن نقسم هذه الدوافع إلى قسمين:

أولاً: دوافع فطرية:

ومن تلك الدوافع:

١. دافع الشعور الفطري بوجود الخالق.

فمعرفة الخالق مغروسة في الفطرة الإنسانية، وهي عهد الله وميثاقه الذي أخذه سبحانه وتعالى على بني آدم، فقد نص الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز، أنه استخرج من صلب آدم ذريته، وأقروا بأن الله تعالى ربهم ومليكمهم.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿١٣٢﴾﴾ [الأعراف: ١٧٢].

قال ابن كثير رحمه الله: «يخبر تعالى أنه استخرج ذرية بني آدم من أصلابهم، شاهدين على أنفسهم أن الله ربهم ومليكمهم، وأنه لا إله إلا هو» (٥).

وهي فطرة الله التي فطر الناس عليها،

يقول: اللهم اجعل عملي كله صالحاً، واجعله لوجهك خالصاً، ولا تجعل لأحد فيه شيئاً (١).

قال ابن كثير في قوله تعالى: ﴿يَبْتَئِسُ بِكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [هود: ٧].

«وقوله: ﴿يَبْتَئِسُ بِكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي: ليختبركم ﴿يَبْتَئِسُ بِكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، ولم يقل: أكثر عملاً، بل ﴿أَحْسَنُ عَمَلًا﴾، ولا يكون العمل حسناً حتى يكون خالصاً لله عز وجل، على شريعة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فمتى فقد العمل واحداً من هذين الشرطين بطل وحبط» (٢).

وأصبح مردوداً على عامله، يعود عليه أحوج ما هو إليه هباءً منثوراً.

قال تعالى: ﴿وَقَدْ مَنَّآ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا إِذْ عَمَلُوا مِن عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ نَبْءَةً مِّنْثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان: ٢٣].

وفي الصحيح عن عائشة، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد) (٣).

وكل عمل بلا اقتداء فإنه لا يزيد عامله من الله إلا بعداً، فإن الله تعالى إنما يعبد بأمره، لا بالأراء والأهواء (٤).

(١) الفتاوى الكبرى، ابن تيمية ٢/ ٧٦ بتصرف.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٣٠٨.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الأفضية، باب نقض الأحكام الباطلة، ورد محدثات الأمور، رقم ١٧١٨.

(٤) مدارج السالكين، ابن القيم ١/ ١٠٥ بتصرف.

(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٥٠٠.

قال تعالى: ﴿فَطَرَتِ اللَّهُ أَلَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠].

قال المراغي: «أي: الزموا حلقة الله التي خلق الناس عليها، فقد جعلهم بفطرتهم جانحين للتوحيد وموقنين به؛ لكونه موافقا لما يهدي إليه العقل، ويرشد إليه صحيح النظر، كما ورد في الحديث عن النبي أنه قال: (كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانه...)» (١) الحديث (٢).

وثبت أيضًا عن النبي أنه قال فيما يحكى عن ربه تبارك وتعالى أنه قال: (خلقت عبادي حنفاء فاجتالنتهم الشياطين عن دينهم) الحديث (٣).

بل إن المشركين في حالة الشدة والبلاء وانقطاع رجائهم عن الدنيا يرجعون إلى الفطرة الشاهدة بالتوحيد، وقد ذكر الله سبحانه وتعالى ذلك في أكثر من آية في كتابه، كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفَلَكِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا بَجَّثُهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب ما قيل في أولاد المشركين، رقم ١٣٨٥، واللفظ له، ومسلم في صحيحه، كتاب القدر، باب معنى كل مولود يولد على الفطرة وحكم موت أطفال الكفار وأطفال المسلمين، رقم ٢٦٥٨.

(٢) تفسير المراغي ٢١/٤٥-٤٦.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار، رقم ٢٨٦٥.

قال الرازي: «وفي الآية إشارة إلى أن المانع من التوحيد هو الحياة الدنيا، وبيان ذلك هو أنهم إذا انقطع رجائهم عن الدنيا رجعوا إلى الفطرة الشاهدة بالتوحيد ووجدوا وأخلصوا، فإذا أنجاهم وأرجأهم عادوا إلى ما كانوا عليه من حب الدنيا وأشركوا به سبحانه وتعالى» (٤).

وإنما خص بالذكر حال خوفهم من هول البحر في هذه الآية وفي آيات كثيرة في كتاب الله؛ لأن أسفارهم في البر كانوا لا يعتربهم فيها خوف يعم جميع السفر؛ لأنهم كانوا يسافرون قوافل، معهم سلاحهم، ويمرون بسبل بألفونها فلا يعترضهم خوف عام، فأما سفرهم في البحر فإنهم يفرقون من هول ولا يدفعه عنهم وفره عدد ولا قوة عدد، فهم يضرعون إلى الله بطلب النجاة ولعلمهم لا يدعون أصنامهم حيثئذ (٥).

فكل فرد من أفراد الناس مفطور أي: مخلوق على ملة الإسلام، ولكن لا اعتبار بالإيمان والإسلام الفطريين، وإنما يعتبر الإيمان والإسلام الشرعيين، وهذا قول جماعة من الصحابة ومن بعدهم، وقول جماعة من المفسرين وهو الحق، والقول بأن المراد بالفطرة هنا الإسلام هو مذهب

(٤) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٥/٧٦.

(٥) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢١/٣٢ بتصرف.

تيمية: والفقر لي وصف ذات لازم أبدًا كما أن الغنى أبدًا وصف له ذاتي»^(٢).

وعرف تبارك وتعالى «الفقراء» في هذه الآية؛ ليريهم شديد افتقارهم إليه، إذ هم جنس الفقراء، وإن كان العالم بأسره مفتقر إليه؛ فلضعفهم جعلوا كأنهم جميع هذا الجنس ولو نكر لكان المعنى: أنتم، يعني: الفقراء^(٣).

وقال الرازي في سبب نزول هذه الآية: «لما كثر الدعاء من النبي صلى الله عليه وآله وسلم، والإصرار من الكفار، وقالوا إن الله لعله يحتاج إلى عبادتنا حتى يأمرنا بها أمرًا بالغًا، ويهددنا على تركها مُبَالِغًا، فقال تعالى: ﴿أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ فلا يأمركم بالعبادة لاحتياجه إليكم وإنما هو لإشفاقه عليكم»^(٤).

ثانيًا: دوافع شرعية:

ومن تلك الدوافع:

١. دافع الرغبة والرغبة.

وهي من أعظم الدوافع الشرعية، فهي من صفات المؤمنين الصادقين، وهي باعث الرجاء والخوف؛ الرغبة في ثواب الله تعالى، والرغبة من عذابه وعقابه سبحانه

(٢) طريق الهجرتين وباب السعادتين، ابن القيم ص ٨ بتصرف يسير.

(٣) البحر المحيط في التفسير، أبو حيان ٢٣/٩.

(٤) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٦/٢٢٩.

جمهور السلف^(١).

ونستخلص مما سبق أن معرفة الله فطر عليها الخلق بأجمعهم، والإقرار بربوبيته سبحانه وتعالى، وأن الانحراف عن هذه المعرفة والإيمان قد تكون من قبل الأبوبن، أو المجتمع، أو بسبب الغفلة، أو الشياطين، كما جاء في الأحاديث الصحيحة.

٢. دافع الحاجة والافتقار.

أخبر الله سبحانه وتعالى في كتابه الحكيم عن حقيقة العباد وذواتهم بأنها فقيرة إليه سبحانه، كما أخبر عن ذاته المقدسة، وحقيقته أنه غني حميد.

قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥].

قال ابن القيم رحمه الله تعالى: «بين سبحانه في هذه الآية أن فقر العباد إليه أمر ذاتي لهم لا ينفك عنهم، كما أن كونه غنيًا حميدًا ذاتي، فغناه وحمده ثابت له لذاته، لا لأمر أوجبه، وفقر من سواه إليه ثابت له لذاته، لا لأمر أوجبه، فلا يعلل هذا الفقر بحدوث، ولا إمكان - ردًا على الفلاسفة والمتكلمين - بل هو ذاتي للفقير، فحاجة العبد إلى ربه لذاته، لا لعله أوجبت تلك الحاجة، كما أن غنى الرب سبحانه لذاته، لا لأمر أوجبه غناه، كما قال شيخ الإسلام ابن

(١) فتح القدير، الشوكاني ٤/٢٥٨.

وتعالى، وقد أننى الله عزو جل على أشرف الخلق إليه، وهم أنبيائه؛ لرغبتهم ورهبتهم. قال تعالى عن زكريا عليه السلام وأهل بيته: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْكَرُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَا رَجَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

قال الرازي: «فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْكَرُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾، وأراد بذلك زكريا وولده وأهله، فبين أنه آتاهم ما طلبوه، وعضد بعضهم ببعض من حيث كانت طريقتهم، أنهم يسارعون في الخيرات، والمسارة في طاعة الله تعالى من أكبر ما يمدح المرء به؛ لأنه يدل على حرص عظيم على الطاعة، أما قوله تعالى: ﴿وَيَدْعُونَا رَجَبًا وَرَهَبًا﴾ قرئ: (رَجَبًا وَرَهَبًا)، وهو كقوله: ﴿يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ [الزمر: ٩].

والمعنى: أنهم ضموا إلى فعل الطاعات والمسارة فيها أمرين: أحدهما: الفرع إلى الله تعالى لمكان الرغبة في ثوابه والرغبة في عقابه. والثاني: الخشوع وهو المخافة الثابتة في القلب، فيكون الخاشع هو الحذر الذي لا ينبسط في الأمور خوفاً من الإثم». (١) وقال ابن القيم: «وقد أننى سبحانه على أقرب عبادته إليه بالخوف منه، فقال عن أنبيائه بعد أن أننى عليهم ومدحهم: ﴿إِنَّهُمْ

كَانُوا يُسْكَرُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَا رَجَبًا وَرَهَبًا﴾ فالرغب: الرجاء والرغبة، والرهب: الخوف والخشية، وقال عن ملائكته الذين قد آمنهم من عذابه: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل: ٥٠] (٢).

٢. دافع المحبة والتعظيم. فإن محبة الله تعالى وتعظيمه، دافع من دوافع عبادته، فالله عزو جل أهل لأن يعبد لذاته الجليلة، وأن يطاع لصفاته العظيمة، قال تعالى: ﴿هُوَ أَهْلُ الْقُوَى وَأَهْلُ الْغَفْرِ﴾ [المدثر: ٥٦].

قال السعدي: «أي: هو أهل أن يتقى ويعبد؛ لأنه الإله الذي لا تنبغي العبادة إلا له، وأهل أن يغفر لمن اتقاه واتبع رضاه» (٣). وقد مدح الله سبحانه وتعالى المؤمنين الصادقين في كتابه، لمحبتهم إياه، قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥].

قال القرطبي في هذه الآية: «وقيل: إنما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ لأن الله تعالى أحبهم أو لآثم أحبوه، ومن شهد له محبوبه بالمحبة كانت محبته أتم، قال الله

(٢) طريق الهجرتين وباب السعديتين، ابن القيم ص ٢٨٢-٢٨٣.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٨٩٨.

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٢/١٨٢-١٨٣.

قال الشنقيطي: «ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة: أن بني آدم لا يقدرّون على إحصاء نعم الله لكثرتها عليهم، وأتبع ذلك بقوله: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ فدل ذلك على تقصير بني آدم في شكر تلك النعم، وأن الله يغفر لمن تاب منهم، ويغفر لمن شاء أن يغفر له ذلك التقصير في شكر النعم، وبين هذا المفهوم المشار إليه هنا بقوله: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ وفي هذه الآية الكريمة دليل على أن المفرد إذا كان اسم جنس وأضيف إلى معرفة أنه يعم؛ لأن ﴿نِعْمَتَ اللَّهِ﴾ مفرد أضيف إلى معرفة فعم النعم»^(٤).

وقد أمر الله بالشكر، ونهى عن ضده.

قال الله تعالى: ﴿وَأَشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنَّ كُتُوبَكُمْ لَإِيَّاهُ تُعْبَدُونَ﴾ [النحل: ١١٤].

وقال تعالى: ﴿وَأَشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُون﴾ [البقرة: ١٥٢].

ووعدهم بأحسن جزائه.

قال تعالى: ﴿وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

وجعله سبباً للمزيد من فضله، وحارساً وحافظاً لنعمته.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا تَذَكَّرْتُمْ لَكُمْ لِيَن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧].

(٤) أضواء البيان، الشنقيطي ٢/ ٣٦٢.

تعالى: ﴿سَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤]^(١).

قال الرازي في قوله تعالى: ﴿سَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ «وفيه دققة وهي أنه تعالى قدم محبته لهم على محبتهم له، وهذا حق؛ لأنه لولا أن الله أحبهم، وإلا لما وفقهم حتى صاروا محبين له»^(٢).

فكلما ازداد القلب حبا لله ازداد له عبودية، وكلما ازداد له عبودية ازداد له حبا وحرية عما سواه^(٣).

٣. دافع الشكر والعرفان.

فإن نعم الله سبحانه وتعالى على بني آدم عظيمة؛ لأن كل النعم على بني آدم منه.

قال تعالى: ﴿وَمَا يَكُم مِّن نِّعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣].

وهي دافع للعبادة لله سبحانه وتعالى، شكرا وعرفانا بعباياه التي لا تعد ولا تحصى.

قال تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمْ مِنْ كَلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ [إبراهيم: ٣٤].

فلا يستطيع الإنسان حصر هذه النعم؛ لكثرتها عليه.

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢/ ٢٠٤، معالم التنزيل، البغوي ١/ ١٩٦-١٩٧.

(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ١٢/ ٣٨١.

(٣) الفتاوى الكبرى، ابن تيمية ٥/ ١٨٨.

صور العبادة

من حكمة الله تعالى في شريعته أن نوع لهم العبادات، وجعل لها صورًا وأشكالًا مختلفة، ومن تلك الصور:

أولاً: عبادات قولية:

وتشمل قول اللسان: كالدعوة إلى الله، وتبليغ دينه، وقراءة القرآن، والدعاء إلى الله، ونحو ذلك.

ومن أدلة هذا النوع:

قوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْ لَهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥].

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [النحل: ٩٨].
وقوله عز وجل: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠].^(٤)

ثانياً: عبادات قلبية:

وتشمل قول القلب: وهو الاعتقاد بما أخبر الله به عن نفسه، وعن ملائكته ولقائه على لسان رسله، ونحو ذلك.^(٥)

ومن أدلة هذا النوع:

قوله تعالى: ﴿يَسِّرْ لَنَا الْبِرَّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ

وقلة أهله في العالمين تدل على أنهم هم خواصه، كقوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرِينَ﴾ [سبأ: ١٣].^(١)

وقد سمع عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه رجلاً يقول: اللهم اجعلني من القليل، فقال عمر: ما هذا الدعاء؟ فقال الرجل: أردت قوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرِينَ﴾ فقال عمر رضي الله عنه: كل الناس أعلم منك يا عمر!^(٢)، فشكر الله تعالى أصعب عبادة وأشرفها.

قال الراغب في قوله تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢].

«وإنما قال تعالى: ﴿وَاشْكُرُوا لِي﴾ ولم يقل: (واشكروني) علماً بقصورهم عن إدراكه، بل عن إدراك الآية، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَعَدَّوْا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾، فأمرهم أن يعدوا بعض أفعاله في الشكر له، وشكر الله عز وجل أصعب عبادة وأشرفها، ولهذا قيل: غاية شكر الله الاعتراف بالعجز عنه، فكل نعمة يمكن شكرها إلا نعمة الله، فإن شكرها نعمة منه»^(٣).

(٤) المفيد في مهمات التوحيد، عبد القادر صوفي ص ٩٥ بتصرف.
(٥) مدارج السالكين، ابن القيم ١/ ١٢٠ بتصرف.

(١) مدارج السالكين، ابن القيم ٢/ ٢٣٢-٢٣٣.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٤/ ٢٧٧.
(٣) تفسير الراغب الأصفهاني، ١/ ٣٤٥.

ثالثاً: عبادات بدنية:

وتشمل أعمال الجوارح: من صلاة، وجهاد، وحج، ونقل الأقدام إلى الجمعة والجماعات، ومساعدة العاجز، والإحسان إلى الخلق، ونحو ذلك (٤).

ومن أدلة هذا النوع:

قول الله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَعِبُدُوا رَبَّكُمْ وَأَقْعُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [الحج: ٧٧].

وقوله جل جلاله: ﴿ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلِيُوفُوا نَدْوَهُمْ وَلِيَطَوفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾﴾ [الحج: ٢٩].

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ثُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾﴾ [الجمعة: ٩] (٥).

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [فصلت: ٣٣].

رابعاً: عبادات مالية:

وتشمل إخراج الزكاة من المال؛ امتثالاً لأمر الله، والوفاء بالنذر، والجهاد بالمال في سبيل الله عز وجل.

(٤) مدارج السالكين، ابن القيم ١/ ١٢١ بتصرف.
(٥) المفيد في مهمات التوحيد، عبدالقادر صوفي ص ٩٦.

بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلْئِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ ﴿١٧٧﴾ [البقرة: ١٧٧] (١).

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ ءَامِنُوا بِي وَرَسُولِي قَالُوا ءَامَنَّا وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾﴾ [المائدة: ١١١].

وتشمل كذلك عمل القلب: كالتوكل عليه، والإنابة إليه، والصبر على أوامره، وعن نواهيه، والذل له والخضوع، والإخبات إليه وغير ذلك من أعمال القلوب (٢).

ومن أدلة هذا النوع:

قول الله عز وجل: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فِتْوَاكُمْ لَإِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [المائدة: ٢٣].

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَأَنبِئُوا بِرَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لِلَّهِ ﴿٥٤﴾﴾ [الزمر: ٥٤].

وقوله عز وجل: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾ [آل عمران: ٢٠٠] (٣).

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [هود: ٢٣].

[هود: ٢٣].

(١) المفيد في مهمات التوحيد، عبدالقادر صوفي ص ٩٥.

(٢) مدارج السالكين، ابن القيم ١/ ١٢١ بتصرف.

(٣) المفيد في مهمات التوحيد، عبدالقادر صوفي ص ٩٥.

ومن أدلة هذا النوع:

قول الله عز وجل: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ نَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ١١٠].

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكَُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٤١].

وقول الله عز وجل: ﴿يَوْمَآكَانَ شُرُهٗمُ مُسْتَطِرًا﴾ [الإنسان: ٧] (١).

خامسًا: عبادات مشتركة:

وهي ما اشتملت على نوعين فأكثر من العبادات، منها على سبيل المثال: الحج: وهي عبادة مركبة من نوعين بدنية ومالية (٢).

واتفق الفقهاء على أن من شروط وجوب الحج الاستطاعة؛ لقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧].

والاستطاعة أي: القدرة، وتحقق بأمور منها: وجود المال الذي يكفي ذهابًا

وإيابًا (٣)، فالحج إذا عبادة لا تقوم إلا بالبدن والمال؛ ولهذا لا يجب إلا عند وجود المال وصحة البدن.

وكذلك العمرة فهي عبادة مركبة من نوعين: بدنية ومالية؛ لقوله تعالى: ﴿وَأَتَمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٦].

وقد ذهب الفقهاء إلى أنه يجوز أداء العمرة عن الغير؛ لأن العمرة كالحج تجوز النيابة فيها؛ لأن كلاً من الحج والعمرة عبادة بدنية مالية (٤).

والجهاد كذلك عبادة مركبة من نوعين: بدنية ومالية.

قال تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٤١].

قال الشوكاني رحمه الله تعالى: «قوله: ﴿وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فيه الأمر بالجهاد بالأنفس والأموال وإيجابه على العباد، فالفقراء يجاهدون بأنفسهم، والأغنياء بأموالهم وأنفسهم، والجهاد من أكد الفرائض وأعظمها» (٥).

وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾ [النساء: ٩٥].

قال ابن عاشور: «وقوله: ﴿بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾، لأن الجهاد يقتضي الأمرين:

(١) المصدر السابق ص ٩٦.

(٢) انظر: المنتقى من فرائد الفوائد، ابن عثيمين ص ٤.

وانظر: الفقه الإسلامي وأدلته، الزحيلي ٢٠٩٥/٣.

(٣) الموسوعة الفقهية الكويتية ٣٢/٣٤٨ بتصرف.

(٤) المصدر السابق ٣٠/٣٢٨.

(٥) فتح القدير، الشوكاني ٢/٤١٤.

عبادة غير الله تعالى

كان الناس أمة واحدة على دين واحد بعد أبينا آدم عليه السلام، واستمروا على ذلك فترة من الزمن، حتى عبدوا الأصنام، فبعث الله الرسل لدعوتهم إلى عبادة الله وترك عبادة ما سواه، وكان أول الرسل نوح عليه السلام.

وقد تحدث القرآن الكريم عن عبادة غير الله عز وجل كثيرًا، ويمكن إيجازها في النقاط الآتية:

أولاً: النهي عن عبادة غير الله:

لقد بعث الله سبحانه وتعالى في كل أمة من الأمم رسولاً يدعوهم إلى عبادة الله وحده، وينهاهم عن عبادة ما زينه الشيطان لهم وأوقعهم فيه من عبادة ما سواه.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

قال السعدي: «يخبر تعالى أن حجته قامت على جميع الأمم، وأنه ما من أمة متقدمة أو متأخرة إلا وبعث الله فيها رسولاً، وكلهم متفقون على دعوة واحدة ودين واحد، وهو عبادة الله وحده لا شريك له.» ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ (٣).

والطاغوت: كل ما عبد من دونه إما بقهر (٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٤٠.

بذل النفس وبذل المال» (١).

والصلاة تشتمل على عبادات قلبية وقولية وعملية.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢].

فالصلاة في الشرع يراد بها: العبادة المُبتدئة بالتكبير المُختمة بالتسليم، التي تشتمل على عبادات قلبية وقولية وعملية، فالصلاة تشتمل على أنواع العبادة في القلب: من الخشوع، والخشية، والإقبال على الله سبحانه وتعالى، وباللسان: من التكبير، والتحميد، والثناء على الله، وتلاوة كتابه الكريم، ومناجاة الرب سبحانه وتعالى، وبالجوارح: من القيام، والركوع، والسجود، والجلوس، فالصلاة عبادة عظيمة، يجتمع فيها ما لا يجتمع في غيرها من أنواع العبادات؛ ولذلك جعلها الله عمود الإسلام، وجعلها الركن الثاني من أركان الإسلام (٢).

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٧١/٥.

(٢) إغاثة المستفيد بشرح كتاب التوحيد، صالح الفوزان ١٦٥/١ بتصرف يسير.

اللَّهُ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ
ظَهِيرًا ﴿٥٥﴾ [الفرقان: ٥٥].

قال ابن كثير في هذه الآية: «يخبر تعالى عن جهل المشركين في عبادتهم غير الله من الأصنام، التي لا تملك لهم نفعًا ولا ضرًا، بلا دليل قادم إلى ذلك، ولا حجة أدتهم إليه، بل بمجرد الآراء والتشهي والأهواء، فهم يوالونهم، ويقاتلون في سبيلهم؛ ولهذا قال: ﴿وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا﴾ أي: عونًا في سبيل الشيطان على حزب الله، وحزب الله هم الغالبون، كما قال تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٦﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَمَّمْ جُنْدٌ مُنْحَضُونَ ﴿٧٧﴾﴾ [يس: ٧٤-٧٥].

أي: آلهتهم التي اتخذوها من دون الله لا تملك لهم نصرًا، وهؤلاء الجهلة للأصنام جند محضون يقاتلون عنهم، ويذبون عن حوزتهم، ولكن العاقبة والنصرة لله ولرسوله في الدنيا والآخرة» (٣).

وفي قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَمَّمْ جُنْدٌ مُنْحَضُونَ﴾ معنى لطيف ذكره الرازي: «وهو أنه تعالى لما قال: ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ﴾ أكدها بأنهم لا يستطيعون نصرهم حال ما يكونون جندًا لهم ومحضون لنصرتهم، فإن ذلك دال

منه لمن عبده، وإما بطاعة ممن عبده له، سواء كان إنسانًا ذلك المعبود، أو شيطانًا، أو وثنًا، أو صنمًا، أو كائنًا ما كان من شيء» (١).

وقد أخبر الله تعالى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم أن دعوته إلى عبادة الله تعالى وحده والنهي عن عبادة ما سواه، هي دعوة الرسل من قبله.

قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوْحِيَ إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وقد قام الأنبياء والرسل جميعًا بذلك، فما منهم من أحد إلا قال لقومه: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [المؤمنون: ٣٢].

وقد احتدم الصراع بين دعاة الحق وأنصار الباطل بين الرسل وأممهم، وخلال هذا الصراع الرهيب تحطمت الأصنام وتهاوت الأوثان، وانخذل الشرك وأهله، وانتصر الحق ودعائه (٢).

المعبودات من دون الله لا تملك شيئًا لعابديها:

أخبر الله عزو جل في كتابه عن جهل المشركين في عبادتهم لمن لا يملك لهم نفعًا، ولا ضرًا، ولا نصرًا، ولا رزقًا، في أكثر من آية.

منها: قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ

(١) جامع البيان، الطبري ٤١٩/٥ بتصرف.

(٢) منهج القرآن الكريم في دعوة المشركين إلى الإسلام، حمود الرحيلي ١٧/١ بتصرف.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١١٨/٦ باختصار يسير.

النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَجِيعُوا لِلَّهِ إِنَّا الَّذِينَ
تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ
اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا
يَسْتَفِيدُونَ مِنْهُ ضَعْفَ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ
﴿٧٣﴾ [الحج: ٧٣].

قال ابن القيم رحمه الله تعالى حول
هذا المثل: «حقيق على كل عبد أن يستمع
لهذا المثل، ويتدبره حق تدبره، فإنه يقطع
موارد الشرك من قلبه، وذلك أن المعبود
أقل درجاته أن يقدر على إيجاد ما ينفع
عابده، وإعدام ما يضره، والآلهة التي يعبدها
المشركون من دون الله لن تقدر على خلق
ذباب، ولو اجتمعوا كلهم لخلقهم فكيف ما
هو أكبر منه، ولا يقدر على الانتصار
من الذباب، وإذا سلبهم الذباب شيئاً مما
عليهم من طيب ونحوه فيستنقذونه منه، فلا
هم قادرون على خلق الذباب الذي هو من
أضعف الحيوان، ولا على الانتصار منه،
واسترجاع ما يسلبهم إياه فلا أعجز من هذه
الآلهة، ولا أضعف منها فكيف يستحسن
عاقل عبادتها من دون الله تعالى؟! وهذا
المثل من أبلغ ما أنزله الله سبحانه في بطلان
الشرك وتجهيل أهله وتقيح عقولهم»^(٣).

على عدم الاستطاعة، فإن من حضر واجتمع
ثم عجز عن النصرة يكون في غاية الضعف
بخلاف من لم يكن متأهباً ولم يجمع
أنصاره»^(١).

وقال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا
يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا
يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ
يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾﴾ [النحل: ٧٣-٧٤].

وفي هذه الآيات تقرير للكفار وتوبيخ
لهم، وإظهار لفساد نظرهم فهذه الأصنام
لا تملك توفير الرزق لعبدتها ولا تستطيع
فعل شيء، فأية: ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ نفي
الملك وتحصيل الملك، ومن لا يملك
شيئاً وهي الأصنام، ليس في استطاعتها
تحصيل الملك، أي: إنها لا تملك شيئاً، ولا
تستطيع تمليك شيء، والنتيجة لذلك أنكم
أيها الوثنيون لا تجعلوا لله أنداداً وأشياءاً
وأمثالاً، ولا تشبهوه بخلقه، فمعنى قوله
تعالى: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ لا تمثلوا
لله الأمثال، وإن الله يعلم ويشهد أنه لا إله
إلا هو، وأنتم أيها البشر الوثنيون بجهلكم
تشركون به غيره»^(٢).

وقد ضرب الله الأمثال في القرآن لبيان
حال هذه المعبودات، وأنها ضعيفة وعاجزة.
ومن هذه الأمثال، قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا

(٣) إعلام الموقعين عن رب العالمين، ابن القيم
١٣٩/١.

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٣٠٧/٢٦.
(٢) التفسير الوسيط، الزحيلي ١٢٨٣/٢.

ثانياً: إنكار المعبودات من دون الله لعابديها:

أخبر الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم أن هذه المعبودات التي عبدت من دون الله، سواء كانت من الحجر، أو من البشر، أو من الملائكة، أو من الجن، سوف تنكر عابديها يوم القيامة وتبرأ من ذلك.

قال تعالى في شأن إبليس: ﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ النَّاسَ وَوَعَدُكُمْ فَآخَلَفْتُمْ بَعْضُهُمْ أَلْفَيْكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنَا بِمُصْرِخَتِمْ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٢٢﴾

[إبراهيم: ٢٢].

قال السعدي في هذه الآية: «أي: ﴿ وَقَالَ الشَّيْطَانُ ﴾ الذي هو سبب لكل شر يقع ووقع في العالم، مخاطباً لأهل النار ومتبرقاً منهم ﴿ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ ﴾ ودخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار ﴿ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعَدَ النَّاسَ ﴾ على السنة رسله، فلم تطيعوه ﴿ وَوَعَدُكُمْ ﴾ الخير ﴿ فَآخَلَفْتُمْ ﴾ أي: لم يحصل ولن يحصل لكم ما منيتكم به من الأمانى الباطلة ﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ ﴾ أي: من حجة على تأييد قولي، ﴿ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي ﴾ أي: هذا نهاية

ما عندي أني دعوتكم إلى مرادي وزيته لكم، فاستجبت لي اتباعاً لأهوائكم وشهواتكم ﴿ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ ﴾ فأنتم السبب وعليكم المدار في موجب العقاب، ﴿ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ ﴾ أي: بمغيثكم من الشدة التي أنتم بها ﴿ وَمَا أَنَا بِمُصْرِخَتِمْ ﴾ كل له قسط من العذاب ﴿ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ ﴾ أي: تبرأت من جعلكم لي شريكاً مع الله، فلست شريكاً لله ولا تجب طاعتي» (١).

والإشراك الذي كفر به إشراكهم إياه في العبادة بأن عبده مع الله؛ لأن من المشركين من يعبدون الشياطين والجن، فهؤلاء يعبدون جنس الشيطان مباشرة، ومنهم من يعبدون الأصنام فهم يعبدون الشياطين بواسطة عبادة آلهته (٢).

قال ابن عاشور: «والمقصود من وصف هذا الموقف إثارة بغض الشيطان في نفوس أهل الكفر ليأخذوا حذرهم بدفاع وسواسه؛ لأن هذا الخطاب الذي يخاطبهم به الشيطان، مليء بإضممار الشر لهم فيما وعدهم في الدنيا مما شأنه أن يستفز غضبهم من كيدهم لهم وسخريته بهم، فيورثهم ذلك كراهية له وسوء ظنهم بما يتوقعون إتيانه إليهم من قبله، وذلك أصل عظيم في

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٢٤ باختصار يسير.

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٣/ ٢٢١.

الموعظة والتربية»^(١).

غيرك، فكيف نأمر أحداً بعبادتنا؟! هذا لا يكون، أو سبحانه عن ﴿أَنْ تَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ فلما نزهوا أنفسهم أن يدعوا لعبادة غير الله، ذكروا السبب الموجب لإضلال المشركين، فقالوا: ﴿وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَعِبَاءَهُمْ﴾ في لذات الدنيا وشهواتها ﴿حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ﴾ اشتغالاً في لذات الدنيا، وإكباباً على شهواتها .

﴿وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا﴾ أي: بائرين لا خير فيهم، فلما تبرؤوا منهم قال الله توبيخاً وتقريعاً للعابدين ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ بِمَا تَقُولُونَ﴾ إنهم أمروكم بعبادتهم ورضوا فعلكم، وأنهم شفعاء لكم عند ربكم، كذبوكم في ذلك الزعم وصاروا من أكبر أعدائكم، فحق عليكم العذاب ﴿فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا﴾ للعذاب عنكم بفعلكم، أو بفداء أو غير ذلك ﴿وَلَا نَصْرًا﴾ لعجزكم وعدم ناصركم، هذا حكم الضالين المقلدين الجاهلين، وأما المعاند منهم الذي عرف الحق وصدف عنه، فقال في حقه: ﴿وَمَنْ يَظْلِمِ نَفْسَهُ﴾ بترك الحق ظلماً وعناداً ﴿نَذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾ لا يقادر قدره ولا يبلغ أمره»^(٢).

وقال تعالى في شأن الأصنام: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ إِلَهًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَفْلُونَ﴾

وقال تعالى في شأن الأولياء والصالحين وغيرهم: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءَ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ﴾ ﴿٧﴾ قَالُوا سُبْحٰنَكَ مَا كَانَ يُلٰغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَعِبَاءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا﴾ ﴿٨﴾ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَنْ يَظْلِمِ نَفْسَهُ نَذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا﴾ ﴿٩﴾ [الفرقان: ١٧-١٩].

قال السعدي في هذه الآية: «يخبر تعالى عن حالة المشركين وشركائهم يوم القيامة وتبريهم منهم، وبطلان سعيهم فقال: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ﴾ أي: المكذبين المشركين ﴿وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ﴾ الله مخاطباً للمعبودين على وجه التقريع لمن عبدهم: ﴿ءَأَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءَ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ﴾ هل أمرتموهم بعبادتكم وزينت لهم ذلك أم ذلك من تلقاء أنفسهم؟ ﴿قَالُوا سُبْحٰنَكَ﴾ نزهوا الله عن شرك المشركين به وبرؤوا أنفسهم من ذلك ﴿مَا كَانَ يُلٰغِي لَنَا﴾ أي: لا يليق بنا ولا يحسن منا أن نتخذ من دونك من أولياء نتولاهم ونعبدهم وندعوهم، فإذا كنا محتاجين ومفتقرين إلى عبادتك متبرئين من عبادة

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٥٨٠ باختصار.

(١) المصدر السابق ١٣/٢١٨.

مقاصد العبادة وآثارها

لقد فرض الله تعالى عن الناس عبادات لها مقاصدها وآثارها في إصلاح الفرد والمجتمع، وفي تزكية الأنفس وإصلاح القلوب، ولها آثار ونتائج مفيدة. وسيتم الحديث عنها في النقاط الآتية:

أولاً: مقاصد العبادة:

إن المقصد الأعظم والباعث الأساسي للعبادة هو استحقاق الله تعالى لذلك، فنحن نعبد الله جل وعلا؛ لأنه مستحق للعبادة؛ وتحقيقاً للغاية التي من أجلها خلق الإنس والجن.

قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

فالمقصد الأصلي للعبادات هو تحقيق العبودية لله والانقياد له سبحانه وتعالى. قال الشاطبي: «إن مقصود العبادات الخضوع لله، والتوجه إليه، والتذلل بين يديه، والانقياد تحت حكمه، وعمارة القلب بذكره، حتى يكون العبد بقلبه وجوارحه حاضرًا مع الله، ومراقبًا له غير غافل عنه، وأن يكون ساعياً في مرضاته وما يقرب إليه على حسب طاقته»^(٢).

ونجد أن هذا المعنى قد تقرر في القرآن

﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٥-٦].

أي: لا أحد أضل منه ولا أجهل، فإنه دعا من لا يسمع، فتبين بهذا أنه أجهل الجاهلين، وأضل الضالين والاستفهام للتوبيخ والتقريع ﴿وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾ الضمير الأول للأصنام، والثاني لعبديها.

والمعنى: أن الأصنام التي يدعونها غافلون عن ذلك لا يسمعون ولا يعقلون، لكونهم جمادات، فالغفلة مجاز عن عدم الفهم فيهم، وأجرى على الأصنام ما هو للعقلاء؛ لاعتقاد المشركين فيها أنها تعقل ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ﴾ العابدون للأصنام ﴿كَانُوا﴾ أي: كان الأصنام ﴿لَهُمْ﴾ أي:

لعبديهم ﴿أَعْدَاءً﴾ يتبرأ بعضهم من بعض، ويلعن بعضهم بعضاً، وقد قيل: إن الله يخلق الحياة في الأصنام فتكذبهم، وقيل: المراد إنها تكذبهم وتعاديهم بلسان الحال لا بلسان المقال ﴿وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ أي: كان المعبدون بعبادة المشركين إياهم جاحدين مكذبين، وقيل: الضمير في كانوا للعبدين، كما في قوله: ﴿وَاللَّوْرِيثَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]، والأول أولى^(١).

(٢) الموافقات، الشاطبي ٢/ ٣٨٣.

(١) فتح البيان في مقاصد القرآن، صديق خان ١١: ١٣-١٢ باختصار.

بأساليب مختلفة، منها ما جاء بصيغة الأمر.
قال تعالى: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء: ٣٦].

وقال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ آعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١].

وقال تعالى: ﴿بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ﴾ [الزمر: ٦٦].

إلى غير ذلك من الآيات (١).

وهناك بعض المقاصد للعبادات قد نص الله تعالى عليها في كتابه، وبين ثمرتها وفائدتها، ومن ذلك: (٢)

أنه قال في الصلاة: ﴿فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه: ١٤].

قال السعدي: «وقوله: ﴿لِذِكْرِي﴾ اللام للتعليل أي: أقم الصلاة لأجل ذكرك إياي؛ لأن ذكره تعالى أجل المقاصد، فشرع الله للعباد أنواع العبادات، التي المقصود منها إقامة ذكره، وخصوصًا الصلاة.

قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ [العنكبوت: ٤٥].

أي: ما فيها من ذكر الله أكبر من نهيها عن الفحشاء والمنكر، ثم خص الصلاة بالذكر وإن كانت داخلة في العبادة؛ لفضلها وشرفها، وتضمنها عبودية القلب واللسان (١) مقاصد الشريعة الإسلامية وعلاقتها بالأدلة الشرعية، محمد اليبوي ص ٤٨٥ بتصرف.
(٢) انظر: المصدر السابق ص ٤٨١ بتصرف.

والجوارح» (٣).

وقال في الزكاة: ﴿حَذِّمْنَ أَمْوَالَهُنَّ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ [التوبة: ١٠٣].

والصدقة تطلق على الفرض والنفل وسمى الله تعالى الزكاة صدقة؛ لأن المال بها يصح ويكمل، فهي سبب إما لكمال المال وبقائه، وإما لأنه يستدل بها على صدق العبد في إيمانه وكماله فيه (٤).

وقد بين الله تعالى الحكمة في الزكاة وبيان مصالحتها العظيمة، فقوله: ﴿تُطَهِّرُهُمْ﴾ أي: من الذنوب ومن الأخلاق الرذيلة، وتطهر المال من الأوساخ والآفات، وأما قوله: ﴿وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ فالزكاة هي النماء والزيادة، فهي تنمي المؤتي للزكاة، تنمي أخلاقه، وتحل البركة في أعماله، وتنمي المال بزوال ما به ضرره وحصول ما فيه خيره، وتحل فيه البركة من الله (٥).

ونسبت التزكية إلى رسول الله؛ لأنه هو المربي للمؤمنين على ما تزكوه نفوسهم (٦). وفي الآية دلالة على أن الزكاة إنما يتولى أخذها الإمام أو نائبه؛ لأنه تعالى جعل للعاملين سهمًا منها (٧).

(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٥٠٣ بتصرف واختصار.

(٤) مفاتيح الغيب، الرازي ٦١/٧.

(٥) تيسير اللطيف المنان في خلاصة تفسير القرآن، السعدي ص ٧٦-٧٧ باختصار.

(٦) تفسير المراغي ١٦/١١-١٧ بتصرف.

(٧) غرائب القرآن ورجائب الفرقان، النيسابوري

وقال في الحج: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ فِي آيَاتِهِ مَعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَيْمَاتِهِ الْأَنْعَامِ﴾ [الحج: ٢٧-٢٨].

قال الرازي: «لما أمر بالحج في قوله: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ﴾ ذكر حكمة ذلك الأمر في قوله: ﴿لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ﴾ واختلفوا فيها فبعضهم حملها على منافع الدنيا، وهي أن يتجروا في أيام الحج، وبعضهم حملها على منافع الآخرة، وهي العفو والمغفرة، وبعضهم حملها على الأمرين جميعاً وهو الأولى، ثم نكر المنافع؛ لأنه أراد منافع مختصة بهذه العبادة دينية ودينية لا توجد في غيرها من العبادات»^(٤). ولأن العبادات شرعت للابتلاء بالنفس كالصلاة والصوم أو بالمال كالزكاة، وقد اشتمل الحج عليهما مع ما فيه من تحمل الأثقال وركوب الأهوال^(٥).

وكنى عن الذبح والنحر بذكر اسم الله تعالى؛ لأن أهل الإسلام لا ينفكون عن ذكر اسمه إذا نحروا وذبحوا، وفيه تنبيه على أن الغرض الأصلي فيما يتقرب به إلى الله تعالى أن يذكر اسم الله تعالى، وأن يخالف

وفيها دلالة على وجوب الزكاة في جميع الأموال، وأن العبد لا يمكنه أن يتطهر ويتزكى حتى يخرج زكاة ماله، وأنه لا يكفرها شيء سوى أدائها؛ لأن الزكاة والتطهير متوقف على إخراجها^(١).

وقال في الصيام: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لِمَلَّكُمْ تَنَفُّونَ﴾ [البقرة: ١٨٣].

قال أبو زهرة: «وقد بين الله تعالى حكمة شرعيته بقوله تعالى: ﴿لِمَلَّكُمْ تَنَفُّونَ﴾ أي رجاء منكم لأن تصلوا إلى درجة المتقين، فتتقوا المعاصي، وسيطرة الأهواء والشهوات على نفوسكم، وذلك لأن الصوم يربي النفس على الضبط، والاستيلاء على أهوائها وشهواتها، وحيث قويت الإرادة قوي سلطانها على الالتواء وعلى الشهوات»^(٢).

وفي الآية تأكيد للحكم، وترغيب في الفعل، وتطبيب لأنفس المخاطبين فإنه عبادة شاقة، والأمور الشاقة إذا عمت كثيراً من الناس سهل تحملها ورغب كل أحد في عملها^(٣).

٤٩٢/٣.

- (١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٣٥٠.
- (٢) زهرة التفاسير، أبو زهرة ٥٥١/١ باختصار يسير.
- (٣) تفسير المراغي ٦٨/٢.

(٤) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٣/٢٢١.
(٥) مدارك التنزيل وحقائق التأويل، النسفي ٤٣٦/٢.

وَالْأَرْضِ ﴿ [الأعراف: ٩٦].

فإن هذه الآية الكريمة تدل على أن من اتقى الله عز وجل وآمن به، فإن الله تعالى يشيبه ويعطيه في الحياة الدنيا من الرزق، ويفتح عليه من بركات السماء والأرض وما ذكره الله في هذه الآية عن أهل القرى، هو من الثواب الدنيوي على الإيمان والتقوى، وأما الثواب الآخروي للمؤمنين المتقين، فقد ذكره الله تعالى في قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَادْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ [المائدة: ٦٥].

وقال عز وجل: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ [الأحزاب: ٧٠].

وهذه عبادة، ثم ذكر الأثر المترتب على ذلك بقوله: ﴿يُصَلِّحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ [الأحزاب: ٧١].

فإن إصلاح الأعمال في الدنيا، ومغفرة الذنوب في الآخرة، من الآثار المترتبة على العبادة، فقد اشتملت هذه الآية الكريمة على ذكر آثار ترتب على العبادة في الدنيا وفي الآخرة.

وقال تعالى فيما حكاه عن نوح وقومه: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبِّيَ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيُنَزِّلْ لَكُمْ جَنَّتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٢﴾

المشركين في ذلك، فإنهم كانوا يذبحونها للنصب والأوثان^(١).

ثانيًا: آثار العبادة:

إن الإسلام قد فرض على الناس عبادات لها أثر حسن في إصلاح القلوب وتهذيب النفوس^(٢)، فأثرها يتمثل في تقويم أخلاقهم، وتزكية نفوسهم، وتوجيههم الوجهة النافعة، وقد أوصى الله عباده بالفضائل، وحذرهم من الرذائل، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٠﴾ [النحل: ٩٠]^(٣).

ومن الآثار المترتبة على العبادات: انشراح الصدر، وراحة البال، وسعة الرزق، وسلامة الإنسان وارتياحه واطمئنانه، وقد جاء في القرآن آيات كثيرة تدل على تلك الآثار، وعلى أن تقوى الله عز وجل والأعمال الصالحة يترتب عليها سعادة الدنيا وسعادة الآخرة.

قال الله عز وجل: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٣/٢٢١.
(٢) العبادات في الإسلام وأثرها في إصلاح المجتمع، محمود السيد شيخون ص ٨٩.
(٣) العبادات في الإسلام وأثرها في تضامن المسلمين، علي عبد اللطيف منصور ص ١١٩ باختصار.

[نوح: ١٠-١٢].

فإن هذه الأمور من الآثار المترتبة على العبادة، فالعبادة هنا هي الاستغفار والآثار المترتبة عليها في هذه الآية هي أنه يرسل السماء عليهم مدرارًا، ويمددهم بالأموال والبنين، ويجعل لهم جنات ويجعل لهم أنهارًا، ومثل هذه الآية (١).

وقال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أَنَّىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيٰوةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

قال القاسمي في هذه الآية: «فضمن لأهل الإيمان والعمل الصالح الجزاء في الدنيا بالحياة الطيبة، والحسنى يوم القيامة، فلهم أطيب الحياتين وهم أحياء في الدارين» (٢)، ثم إن من العبادات الصلاة والزكاة والصيام والحج، وكل واحدة منها لها آثار طيبة في حياة المسلم.

فالصلاة هي عمود الإسلام، وهي التي تنهى عن الفحشاء والمنكر.

قال الله عز وجل: ﴿وَأَقِمِ الصَّلٰوةَ إِنَّ الصَّلٰوةَ تَنهٰى عَنِ الْفَحشِئَةِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

وهي صلة وثيقة بين العبد وبين ربه، فإذا حافظ الإنسان على الصلوات في المساجد

- (١) أثر العبادات في حياة المسلم، عبد المحسن البدر ص ١١-١٦ بتصرف.
(٢) محاسن التأويل، القاسمي ٧/١٥٩.

جماعة مع المسلمين فإنه تقوى صلته بالله عز وجل؛ لأنه يكون على صلة بالله دائماً وأبداً في اليوم واللييلة (٣)؛ لذلك حث الله تعالى على إقامة الصلاة في الجماعة، قال تعالى: ﴿وَأَقِمُوا الصَّلٰوةَ وَآتُوا الزَّكٰوةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٣].

ومن آثارها أنها تمد المؤمن بقوة روحية تعينه على مواجهة المشقات والمكاره في الحياة الدنيا، قال تعالى: ﴿اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلٰوةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣] (٤).

ثم إن الزكاة آثارها عظيمة فهي تطهر النفس من الشح والبخل، وتطهر المال، وتكون سبباً في نمائه وكثرته، وبذلك يحصل الخير والفلاح والفوز (٥).

قال تعالى: ﴿خٰذِ مِنَ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلٰوةَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٣].

وقال ابن عاشور في قوله تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقِ شَحْمَةَ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [التغابن: ١٦].

«والمعنى: أن الإنفاق يقي صاحبه من

- (٣) أثر العبادات في حياة المسلم، عبد المحسن البدر ص ٢٠ بتصرف.
(٤) العبادات في الإسلام وأثرها في إصلاح المجتمع، محمود السيد شيخون ص ٩٠ بتصرف.
(٥) أثر العبادات في حياة المسلم، عبد المحسن البدر ص ٢١ بتصرف.

وأما الحج فإنه عبادة عظيمة، ولها آثار طيبة، ونتائج حميدة في حياة الإنسان.

قال تعالى: ﴿الْحَجَّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَةٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ يَكْتُمُهُ اللَّهُ وَكَرَّوْذُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَآتَقُونِ يَتَأْوَىٰ إِلَىٰ الْأَبْنَىٰ﴾ [البقرة: ١٩٧].

فالحج غذاء روحي كبير تمتلئ فيه جوانح المسلم خشية وتقوى لله رب العالمين، ففي كل منسك من مناسكه غذاء للروح، فما الإحرام إلا تجرد من شهوات النفس والهوى، وحبس للنفس عما سوى الله عز وجل، وحث على التفكير في عظمة الله جل جلاله، وحث على تذكر الموت والاستعداد له بالعمل الصالح فالحاج في لباس إحرامه يذكر الميت في أكفانه، وما التلبية إلا استجابة وذكر وطاعة وامتنال، وما الطواف بعد التجرد إلا استحضار لعظمة الله تعالى حول بيته، وامتنال لأمره ﴿وَلِيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ [الحج: ٢٩].

وما السعي بين الصفا والمروة إلا تردد بينهما التماسا لرحمة الله تعالى وطلباً لمغفرته، وما الوقوف بعرفة إلا بذل للمهج في الضراعة إلى الله بقلوب مملوءة بالخشية وأيد مرفوعة بالرجاء وألسنة لاهجة بالدعاء وآمال صادقة في أرحم الراحمين، وما الرمي بعد ذلك إلا رمز

الشح المنهي عنه، فإذا يسر على المرء الإنفاق فيما أمر الله به فقد وفي شح نفسه، وذلك من الفلاح وإضافة الشح إلى النفس؛ للإشارة إلى أن الشح من طباع النفس، فإن النفوس شحيحة بالأشياء المحببة إليها، قال تعالى: ﴿وَأَحْضَرْتَ الْأَنْفُسَ الشُّحَّ﴾ [النساء: ١٢٨] (١).

وأما الصيام فإن آثاره عظيمة، ونتائجه كبيرة، قال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لِمَاكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣].

قال المراغي: «فرضه عليكم ليعدكم لتقوى الله بترك الشهوات المباحة الميسورة؛ امتثالاً لأمره واحتساباً للأجر عنده، فتتربى بذلك العزيمة والإرادة على ضبط النفس وترك الشهوات المحرمة والصبر عنها، وإعداد الصوم لتقوى الله يظهر من وجوه كثيرة، منها: أنه يُعوِّدُ الإنسان الخشية من ربه في السر والعلن، ويكسر حدة الشهوة، ويجعل النفس مصرفة لشهواتها بحسب الشرع، ويعود الشفقة والرحمة الداعيتين إلى البذل والصدقة، فهو عندما يجوع يتذكر من لا يجد قوتاً من أولئك البائسين، فيرق قلبه لهم ويشفق عليهم، وفي ذلك تكافل للأمة وشعور بالأخوة الدينية» (٢).

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٨/٢٨٩.

(٢) تفسير المراغي ٦٨/٢-٧٠ بتصرف واختصار.

لاحتقار عوامل الشر ونزعات الشيطان، وما الذبيح إلا إراقة للدم الذي أمر الله به أن يراق ورمز للتضحية والفداء ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١٦٢). [الأنعام: ١٦٢].^(١)

والحاصل أن هذه العبادات العظيمة التي شرعها الله عز وجل، وبنى عليها دينه الحنيف، تترتب عليها آثار طيبة في حياة المسلم الدنيوية، وآثار عظيمة في حياته الأخروية^(٢).

موضوعات ذات صلة:

الحج، الزكاة، الصبر، الصلاة، الصيام، الطهارة

(١) العبادات في الإسلام وأثرها في إصلاح المجتمع، محمود السيد شيخون ص ٩٧ بتصرف.

(٢) أثر العبادات في حياة المسلم، عبد المحسن البدر ص ٣٠.